تعريف بالكتاب

قصة الجريمة والعقاب هى أولى الروائع التى اشتهر اسم دستيفسكى فى الآداب العالمية واعتبره النقاد الثقات من أجلها سيد كتاب الروس بل سيد كتاب القصة بين الأوربيين عامة فى القرن التاسع عشر .

قال اندريه جيد فى مقدمة كتابه عنه : ان الواقف عند سفح الجبل ينظر الى قمته فلا ترى عيناه قمة أرفع منها ، ولكنه اذا ابتعد من جانب السفح ظهرت له القمم التى احتجبت وراءه وعلم أن قمة جبله الأول لم تنفرد بالارتفاع . ويعني جيد أن اسم تولستوى غطى على كل اسم من اسماء أبنـــاء وطنه المعاصرين له حتى عرف القراء قصص زميله دستيفسكى فارتفعت عنـدهم الى الذروة التى لا تعلوها ذروة فى عالم الأدب الغربى ولا سيما عالم القصة التى تنسب الى المدرسة الواقعية « السيكولوجية » وليس لهذا الكاتب القدير نظير فيها .

وبطل هذه القصة « رسكلنيكوف » طالب روسى تنازعت نفسه الشوك فى كل قيمة من قيم العقـــائد والأخلاق وكل غاية من غايات الحياة ، وتجسم فيه كل ما يعتلج فى صدر الفتى الروسى المتعلم من ميراث الصدام بين النقائض فى حياة أبناء قومه وهم يضطربون بين القيم الآسيوية والقيم الأوربية وبين تاريخ روسيا القديم وطلائع الحضارة الأوربية الحديثة ، وبين المثل البدائية والمثل المسيحية التى طرات عليهم فلم تلبث أن امتزجت فيهم بثقافتهم المغـايرة على النحو الذى تميزت به الكنيسة الروسية بين كنائس الغرب الكبرى ، وجاء الحكم القيصرى فتم هذه النقائض بنقيضة تحتويها وتزيد عليها حيثما شعر الروس —

والمتعلمون منهم على الخصوص – بالقوارق النظرية والعملية بين حكم الأمة كما ينادى به المصلحون السياسيون المحدثون ، وبين حكم القيصر الملقب عندهم « بالأب الصغير » ، اى رب الارض الذى يقابل « الاب الكبير » اي رب السماء .

هذه النقائض فى عنفوانها خلال القرن التاسع عشر اثقلت نفوس الشباب المتعلم بالشكوك والمقلقات ومزقت ضمائرهم بين العرف والعقيدة وبين المثل العليا كما يتخيلونها – او على الاصح – كما ارادوا ان يتخيلوها لانهم كانوا يخلقون لانفسهم تلك المثل العليا وهى اعسر شيء أن يخلقه الانسان لنفسه باختياره ، لانها – بطبيعتها – مما يفرض على الانسان فرضا ويتلقاه بالتسليم والاذعان وهو مطمئن اليه .

ومن عوارض هذا القلق ، وهذه المحاولة ، أن تحلل الشباب من قيود الدين والعرف وشاع بينهم انها وهم من الأوهام التى تشيع بين جمهرة الناس لجهلهم وحاجتهم الى وازع الدين والقانون ، وان الانسان الممتاز بفهمه وكفايته يخلق لنفسه قانونه ، بل يخلق لكل حادثة من حوادث حياته قانونها الذى يلائمها ولا يبالى أن يرتكب الجريمة فى اصطلاح القوانين العامة اذا كان فيها تيسير لأمثلته العليا وهى فوق القوانين .

وقد ملكت هذه الفكرة الجامحة عقل رسكلنيكوف – بطل الجريمة والعقاب – كما يملك الوسواس الجامح عقول الأغرار المخبولين فلا يستريحون أو يتخلصوا منه بالعمل الذى يزينه لهم ويدفعهم اليه فاختار لتحقيق رسالته واثبات عبقريته جريمة قريبة منه ، وهى جريمة قتل ذهبت بحياة امرأة مرابية فى الحى وقضت على حياة اختها معها خوفا من تبليغها عن القاتل . ولم يفرغ رسكلنيكوف من فعلته حتى تركه وسواسه الأول وتسلط عليه وسواس آخر أشد منه وأعصى وهو وسواس القلق والخوف من الاعتقال ، وبخاصة بعد أن دهم

الشرطة مسكنه لسؤاله عن امر لا علاقة له بجريمته ، فمثل بين ايديهم وهو يهم بالانصراف ليستريح من وسواسه الجديد ، ولم يكد يعلم ان الشرطة لا يزالون يجهلون سره حتى اعتلج فى ضميره خاطر يلح عليه ليل نهار ليسلم نفسه ويستريح ، فيثنيه عنه حب الحياة وغرور الاعتقاد بحقه فى الاجرام وبطلان حق القانون — بالنسبة اليه — فى العقاب والتاديب .

وانتهى هذا الوسواس الملح بتسليم نفسه والاعتراف بفعلته ، ولكنه اقدم على ذلك بعد محنة طويلة لقى فيها صنوفا من نفايات المجتمع واراذل الخلق منهم ، الفنى الخادع والفقير المتورط فى الشرور والبغى المستسلمة على الكرم — منها لحياة العقم والفساد ، فراعه أن يلمس فى بيئة الدنس والفساد دلائل الطيبة الرضية والعطف الأصيل والايمان الصادق بحكمة المقادير وصواب الجزاء والعقاب ، بل صواب العذاب والتكفير ، واستراح آخر الأمر الى عذابه الأليم لأنه اعتبره وسيلة الهية من وسائل التكفير عن ذنبه والتوبة من غروره . فأسلم نفسه وقضى سنوات السجن وهو ينعم برضوانه عن نهايته وعطف صديقته التي قنعت من دنياها بمصاحبته والمعيشة الى جواره غير متطلعة الى جزاء لها غير اليقين من سلامة روحه مع سلامته من وطأة العقاب .

ان آية الاعجاز فى هذه النهاية ان القارىء يتابع أدوارها التى مهدت لها فلا يخطر له لحظة أن دستيفسكى جاء بشىء من عنده لتغليب عقيدة التكفير والتوبة متعمدا ان يثبت بها فكرته الدينية أو مذهبه فى التطهر والاصلاح ، وكل ما يرد على خاطر القارىء ان العوامل النفسية — الطبيعية — هى التي حملت الكاتب كما حملت بطل الرواية معا حتى وصلت بها الى هذه النتيجة كما تصل العوارض الطبيعية الى نتائجها .

وتعليل هذه القدرة ، أو تعليل هذه المطاوعة بين فكرة الكاتب وعمله

الفنى ان هذا الكاتب كان ــ بطبيعته ــ ظاهرة نفسية تعمل فيه وساوس الضمير ونقائض الحيـــاة الروســـية قبل ان يعملها فى شعائر ابطاله وبطلاته ، فهو صادق الحس والفكر معـــا بما يكتبه وما يشعر به قبل أن يجرى القلم على القرطاس ، وانما قرطاسـته صفحـة منقولة من صفحات وجدانه بغير تكلف ولا اصطناع .

وقد بدا لفرويد أن يضع هذه الظاهرة النفسية على مشرحته فخرج منها بحالة من أصدق حالاته فى تفسير الأعمال الفنية كما تفسر الاحلام والوساوس المكتومة ، ورجح ــ عند فرويد ــ أن دستيفسكى عاش مدخول الضمير يتهم نفســه بالكنــود والعقــوق لانه ســمع بمقتل ابيه فلم يحزنه ولم يشقه أن ينتقم له ويأخـذ بثاره ، فداخله الشك فى بواعث كل ثورة نفسية تثيرها مذاهب السياسـة فى نفســه ، واعترف بذنبه فى التهم السياسية كما اعترف باستحقاقه للجزاء تكفيرا عن ذلك الذنب لانه لم يزل يلوم نفسه ويتهمها بالتقصير ويتخذ شعوره بمصرع أبيه رمزا لشعوره بكل سلطة ينقم عليها ثم يشعر بحقها عليه ولواعج ضميره بالنسبة اليها . ويؤيد هذا التخريج ــ غير البعيد ــ ان بطلا من ابطال قصة كرامازوف ــ اكبر قصص دستيفسكى ــ يقول فى غير تلجلج ولا مواربة : ومن هو ذاك الذى لا يتمنى الموت لأبيه ؟ .

قيــل عن سيرة دستيفسكى المدرسية انه كان من أبرع الطلاب فى الرسوم العسكرية ، ولكنه كان فى رسومه البارعة يهمـل المخرج الذى يتوقف عليه الرسم كله ، وحسبوا عليه من غرائب هذه الخلة العقلية انه رسم ذات يوم قلعـة محكمة غاية الاحكام ، ولكنها مغلقة على من فيها ، كأنها محصنة على من يريد الخروج منها وليست محصنة على من يريد أن يقتحمها من خارجها .

فاذا ابى علينا المنطق الصحيح أن نفهم من عيوب هذه الرسوم أنها مثال لعقل دستيفسكى ولعجزه عن تدبير المخارج القويمة من مشكلات

الفنى ان هذا الكاتب كان ـ بطبيعته ـ ظاهرة نفسية تعمل فيه وساوس الضمير ونقائض الحيـــاة الروســـية قبل ان يعملها فى ضمائر ابطاله وبطلاته ، فهو صادق الحس والفكر معـا بما يكتبه وما يشعر به قبل أن يجرى القلم على القرطاس ، وانما قرطاســته صفحـة منقولة من صفحات وجدانه بغير تكلف ولا اصطناع .

وقد بدا لفرويد أن يضع هذه الظاهرة النفسية على مشرحته فخرج منها بحالة من أصدق حالاته فى تفسير الأعمال الفنية كما تفسر الاحلام والوساوس المكتومة ، ورجح ـ عند فرويد ـ أن دستيفسكى عاش مدخول الضمـير يتهم نفســه بالكنــود والعقــوق لأنه ســمع بمقتــل ابيــه فلم يحزنه ولم يشغله أن ينتقم له ويأخـذ بثاره ، فداخله الشك فى بواعث كل ثورة نفسية تثيرها مذاهب السياسـة فى نفســه ، واعترف بذنبه فى التهم السياسية كما اعترف باستحقاقه للجزاء تكفيرا عن ذلك الذنب لأنه لم يزل يلوم نفسه ويتهمها بالتقصير ويتخذ شعوره بمصرع أبيه رمزا لشعوره بكل سلطة ينقم عليها ثم يشعر بحقها عليه ولواعج ضميره بالنسبة اليها . ويؤيد هذا التخريج ـ غير البعيد ـ ان بطلا من ابطال قصة كرامازوف ـ اكبر قصص دستيفسكى ـ يقول فى غير تلجلج ولا مواربة : ومن هو ذاك الذى لا يتمنى الموت لأبيه ؟ .

قيــل عن سيرة دستيفسكى المدرسية انه كان من أبرع الطلاب فى الرسوم العسكرية ، ولكنه كان فى رسومه البارعة يهمـل المخرج الذى يتوقف عليه الرسم كله ، وحسبوا عليه من غرائب هذه الخلة العقلية انه رسم ذات يوم قلعـة محكمة غاية الاحكام ، ولكنها مغلقة على من فيها ، كأنها محصنة على من يريد الخروج منها وليست محصنة على من يريد أن يقتحمها من خارجها .

فاذا ابى علينا المنطق الصحيح أن نفهم من عيوب هذه الرسوم أنها مثال لعقل دستيفسكى ولعجزه عن تدبير المخارج القويمة من مشكلات

الحياة بغير التسليم والسكون الى مكانه المغلق عليه ، فليس المنطق المجازى بمانع لنا أن نرى هذه المشابهة بين رسومه على الخرطة ورسومه على صفحات الكتاب . فان مشكلاته فى اكثر رواياته تستعصى على المخارج القويمة ولا تقبل لها مخرجا غير التسليم والسكون الى المشكل العمى ، كأنه هو الحل المستطاع الذى لا مهرب منه ، وليس من اللازم ان يكون اللوم فى هذا على الرسم او على الراسم ... فقد يكون الحصن كذلك كيفما تبدلت الرسوم واختلف عليها المهندسون ، وقد يصح أن يعود اللوم أخيرا الى الكاتب وأن تكون هذه « نقطة ضعفه » كما يقال عن أصحاب الآيات وأصحاب المواطن الضعاف التى لا تفارق تلك الآيات فى كاتب من الكتاب المعدودين ويصح ـ اذن ـ قول أوكنر فى الحوار التالى : « ان لكل كاتب نوعا من الاختلاط فى الشعور، وأكاد لا أجد كاتبا من كبار كتاب الرواية لا يتصارع بين خبرتين » .

عباس محمود العقاد